

قبور فوق الأرض

قصة بقلم جوبو . ١١

بقسوة ، ولم يلبث أن رفع نظره الضعيف الى الصيدلي واستجمع شجاعته ثم قال :

- الا يمكن الاستغناء عن بعض هذه الادوية ؟
لا يدري كيف جاءه هذا الخاطر ، الا انه اعجب بهذه الفكرة التي طرأت على باله . فاذا لم يكن هناك مجال لخفض سعر هذه الادوية فليختصر منها على الاقل .
نظر اليه الصيدلي طويلا وهز رأسه عدة مرات ثم قال له وهو يتنقر البلاطة المرمرية البيضاء امامه :

- يمكن الاستغناء عنها جميعا .
كان يعرف ان من عادة الصيادلة الا يطيلوا الحديث مع زبائنهم ، ولم يدرك ان ابدى الصيدلي رحابة الصدر هذه ، آتراه أشفق عليه ، فسأله :

- كيف يمكن الاستغناء عنها ؟
عند ذلك نظر اليه الصيدلي نظرة جامدة كمنظرة حامل الموتى ، وفتح الصرة ببطء وأشار الى ابرة صغيرة ثم سحبها ووضعها امام عينيه فكادت تمس أنفه ، وقال له :

- مورفين .
فهز رأسه ولم ينطق بحرف .
فأعاد الصيدلي كلمته بشيء من النزق :
- مورفين !

كان في صوته ما يشبه الصراخ وكأنه يريد ان يقول له ((ألا تفهم؟)) ولكن عينيه ظلنا معلقتين به كأنهما مسمرتان ، فأدرك انه لم يفهم معنى كلمته فهلا .

من المريضة ؟
- أمي .
- وهل تقيأت ؟

فسارع الى الجواب كأنه وجد في سؤال الصيدلي بشيرا بالبرء :
- نعم ، نعم ، صباح هذا اليوم .
عند ذلك ضرب الصيدلي كفا بكف وتمتم :
- ان انتشار هذا المرض ليدعو الى الخوف والفرح .
ما أعظم هذا الصيدلي الطيب ، فهو يسكاد يساوي الطبيب في فهمه .

- وهل عرفت مرضها ؟
لم يجبه بكلمة بل أعاد الابرة الى الصرة وربطها بتؤدة وقال كمن يخاطب نفسه :

- ابرة كل يومين ، ثم ابرة كل يوم ، ثم ابرتان في اليوم الواحد وهكذا ..

- ولكن الطبيب قال لنا ان هذا الدواء سيخفف عنها المها .
- هذا صحيح ، ولكن المورفين ليس دواء .
- نعم ، لا شك ، ان في العلب الاخرى فيما أظن الدواء .
- مقويات ، مجرد مقويات . اطباء هذا الزمان ، يخدرون الجسم فيضعفونه ، ويعطونه في الوقت نفسه المقويات ، وهم يعلمون حق العلم ان ما من دواء لهذا المرض .
وسأله بلهفة :

خرج من البيت لا يلوي على شيء ، واتجه بخطى سريعة ، يقطع الزقاق الضيق ، ليبلغ الشارع العام حيث يجد في آخره الصيدلية الكبيرة الواسعة . كل ما كان يريده ويفكر فيه ان يصل الى الصيدلية بسرعة ، كي يتنازع الادوية التي اوصى بها الطبيب قبل ان يغادر منزله . لقد سمع الطبيب يقول له ولابيه وحدهما : « ان الامل في شفائها ضعيف بعض الشيء ، الا اننا سنبتل كل ما في وسعنا . ولم يزد على ذلك بل وعد بالعودة في اليوم الثاني . لذلك كن امله كله متعلقا بهذه الوصفة الطبية التي كان يسك بها وهو يهرول في سيره .

وحين بلغ أول الشارع تطلع الى آخره ، فرأى انوار المخازن مضاءة كلها لم يطفأ واحد منها ، فشعر بقليل من الاطمئنان اذ عرف ان الصيدلية لم تغلق بعد وانه لن يضطر الى اصاعة اية دقيقة في البحث عن الصيدلية المناوبة في تلك الليلة . ومن يدري فقد تكون بعيدة فسي هذه المدينة المترامية الارعاء . غير ان شيئا من الخوف كان يساوره حول ثمن الدواء ، فقد كان في الوصفة اسماء كثير من الادوية ، ومع انه كان في اوائل الشهر ، اي انه قبض راتبه منذ ايام قلائل الا انه كان يعرف ان ليس للراتب بركة كما يقول الناس في مدينته ، وها قد سلخ منه الطبيب بزيارته قسما ، وعسى الا يحتاج الى اطباء آخرين يأتون على البقية الباقية من راتبه .

قال في نفسه « ارجو الا يكون ثمن الدواء غاليا » ولكنه كان يعرف ان هذه امنية بعيدة المنال ، فالادوية غالية الثمن وهو يعرف ذلك حق المعرفة .

ولج باب الصيدلية فبهرتة اضواء النيون ومعرضات الواجهات الزجاجية ، وليس يدري لماذا شعر كأنه يدخل ملهى او مقصفا ، وعند ذلك فقط تذكر هذه الجملة التي سمعها قبل ان يغادر البيت، لعلها كانت آخر جملة او الجملة الوحيدة التي نطقت بها امه « لا حاجة للدواء ، اريد قبرا واسعا » لقد تذكر الان هذه الجملة التي قالتها له امه ولكنه لم يلتفت اليها آنذاك وما وعى لها معنى . ثم ها هي ذي تبرز فجأة في ذهنه وتلج عليه الحاحا شديدا « لا حاجة للدواء ، اريد قبرا واسعا » حقا لقد قالت له امه ذلك ، وهي شبه غافية في فراشها الصغير السذي وضع على المنعد الخشبي الوحيد في البيت فشكل شيئا ما يشبهه السريس .

وجره من شروده هذا اندفاع الناس بين داخل وخارج في بهو الصيدلية الواسع ، ورأى نفسه يتقدم نحو الصيدلي القصير الذي كان يرتدي صدرا أبيض ، فترطم رجله بالميزان الكبير الرابض في الطرف الايمن من الصيدلية ، تفحص الصيدلي الوصفة الطبية ومضى بسرعة من وراء منضدته يلتقط الادوية من الرفوف بمهارة وسرعة مدهشتين ، وعجب في نفسه من سرعة هذا الصيدلي وخشي ان يخطيء وهو في غمرة سرعته تلك فيبدل دواء بدواء .

رصف الصيدلي الادوية على اللوح المرمرى امامه وراح يحسب ثمنها ، واضاف بسرعة وهو يضع الادوية في صرة امامه :

- ثلاث وعشرون ليرة وعشرة قروش .
فاطرق قليلا ، لكم ود لو يفصل الصيدلي ويساومه على عادته كلما دخل متجر او مخزنا ، ولكنه تمالك نفسه وصرف هذا الخاطر عن ذهنه

– وما هذا المرض ؟ انني لا افهم ؟
قال الصيدلي بلهجة ملؤها البساطة :

– السرطان .

ففر فمه دهشة ، ولم يعد يدري ماذا يقول ، ووجد نفسه يتقدم
الصيدلي البالغ المطلوب ، ويحمل صرة الادوية ، ويهضي .

وحين كاد يبلغ باب الصيدلية التفت فجأة نحو الصيدلي وقال له :
– شكرا ، طاب مساؤك .

واشار اليه الصيدلي ان اقترب فاقترب منه محاذرا . فهسز
الصيدلي رأسه وهو يحدق بعينيه ، وقال له بصوت فيه شيء من المودة
والحنو :

– تشجع يا فتى فانت رجل .

لم يجبه بكلمة بل انطلق صامتا . كانت الصيدلية خالية من
الناس ، وراح اجير الصيدلي يفتح الابواب الجانبية ، وحين انتهى الى
الشارع وجد نفسه يخفف من سرعته ويسير ببطء ، غير آبه لهذا الدواء
الذي انطلق مسرعا لشرائه مقدرا ان امه ستجد البرء فيه بعد ساعات
قليلة .

وعاوده صوت امه وهو يسير مستانبا في ليل الشارع الطويل .
المها كانت تدرك بحسها ان مرضها هذا لا شفاء منه ، فتمت امنيتها
الاخيرة . وراح يفكر بمعنى كلمتها ، فلم يفهم لها معنى . قيم ارادت
قبرا واسما وما فائدتها منه ؟ ألم يكن أجدر بها ان تطلب أمنية اخرى .
اية أمنية ؟ لا شك ان الالم كان يضيقها فلم تكن تعي ماتقول . ولكن
سرعان ما عاد صوتها الى اذنه قويا حادا كأنه صرخة ألم تبعث من فم
طفل صغير « اريد قبرا واسما » وتذكر انها كررتها مرتين ، وكأنما كانت
تخاطبه وحده بكلماتها تلك مع ان اباه واخوته كانوا حولها .

وفجأة التمع في ذهنه معنى كلماتها ، حدث ذلك على نحو سريع
جدا حتى ليمجز الانسان ان يقدر عظيم سرعته ، كوميض برق ، أو رفعة
جفن خاطفة او مذب يهوى سريعا من احدى النجوم فتلتقطه نجمة
اخرى . آه صحيح ، وهز رأسه ، صحيح جدا ، كيف غابت عن ذهنه كل
تلك الصور والذكريات التي طالما رددتها امه على مسمعه منذ طفولته
الى اليوم ؟

نقل صرة الادوية من يد الى اخرى وعاد بنهته الى البيت وامه

والضيق الذي لازم الاسرة منذ كانت . فاحس بكثير من الشفقة نحو
امه ، وشعر بالوقت نفسه بالعجز ، العجز المطبق ، فهو لا يستطيع ان يفعل
شيئا وان مرتبه بالاضافة الى القليل الذي يكسبه ابوه لا يكاد يقوم بأود
الاسرة ، وتذكر هذا الضيق الذي يأخذ بخناق الاسرة ، في الليل خاصة،
حين يصطدم النيام بمضهم بعض ، وهم ممددون على فراشهم المبسوط
على الارض ، والوالدان والاخوة والاخوات ، يحشرون فراشهم الواحد الى
جانب الاخر في هذه الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الاربعة . لقد قالت
له امه عشرات المرات « ليتنا نستطيع ان نستاجر احدي الغرف المجاورة
في هذه الدار الواسعة التي تضم خمس اسر ، اننا لاستطعنا ان نتوسع
قليلا . » كانت تكرر هذه الامنية ، في اغلب الايام ، ولا سيما حين
تسهر بالأم في ظهرها من جراء طي الفراش وحملها الواحدة تلو الاخرى،
لوضعها خلف الحاجز الخشبي نهارا . واعادة حمل كل فراش ومدد مع
الاغذية والوسائد ليلا .

وساوره كثير من الدهشة أذ ادرك انه يعرف كل هذه الامور ، ومنذ
زمن بعيد ، طالما كررت امه على مسمعه وسمع اخوته القولة المعروفة
« الضيق بشع ، والبحبوحة جيدة ولو كانت في القبر » .

وتذكر كيف كانت الاسرة تسارع ، في بعض الايام ، لاحتلال احدي
الغرف التي ينتقل منها المستاجرون . كان الجميع يشعرون بشيء من
الحرية فيتنفسون ببطء ، وكانت امه تردد في تلك الظروف خاصة ،
« ليتنا نستطيع ان نستاجر غرفة اخرى ، غرفة واحدة اخرى كي ينام
ويدرس الاولاد فيها ، ونخصص هذه لي ولزوجي وللطعام والضيوف .
ولكن ما اسرع ما كنا نللم اشياءنا من الغرف التي كنا نحتلها موقتا ،
للالسرة الجديدة الوافدة على دارنا الواسعة . قال في نفسه « يا لغبائي،
انني متلبد الفكر هذا المساء . » وتأكد انذاك انها قالت كلماتها تلك
حقا وهي تعي ماتقول وأنه لم يكن مخطئا فيما سمع .

انتهى الى مدخل الخي الضيق الطويل الذي تقع الدار فسي
نهايته . كانت قدماء ثقيلتي الوطاة كأنهما لا يريدان الوصول الى الدار.
وتساءل في نفسه « ترى هل تشفى امه من مرضها ، وهل يستطيع ان
يستاجر غرفة اخرى ذات يوم كي تجد الاسرة شيئا من البحبوحة ؟ »
الا انه صرف هذه الفكرة عن ذهنه . لم يكن يشغله الان الا شيء
واحد ، هو القبر الواسع . ترى هل قدرت امه ان الارض غالية فسي
المقبرة ، غالية جدا ؟ اني له ان يشتري ذراعين من الارض ؟ وافتر فمه
عن ابتسامه بريئة . هذا منتهى الحال . اذا ماتت . . . واقشعر جسمه
لهذه الفكرة ، وصرخ بملء صوته « لا سمح الله » ولكنه عاد يقول فسي
نفسه هامسا اذا ماتت فستدفن في القبر الذي دفن فيه جده وجدته منذ
عشرات الاعوام ، ومن يدري ، فان صح مازعم ابوه ، فقد دفن فيه اسلاف
الاسرة جميعا . وتخيل العظام القديمة ، في قبر الاسرة ، تللم نفسها
قليلا كي توسع مكانا لرائر جديد ، تماما كما فعل هو واخوته يوم وضعت
امه اخته الصغيرة لبضع سنوات خلت .

ضفط على الصرة بكل قوته حتى تعبت رؤوس اصابعه ، واعجب
بهذا الدواء الذي يحمله ، الا ما اجهل الصيدلي ، المورفين ، نعم انه
يحمل الى امه المورفين ، وفيه الخدر ، الخدر اللذيذ ، لسوف تتخيل
نفسها سعيدة ، سعيدة جدا ، في منزل واسع ، في منتهى الجمال
والفخامة ، لن تجد المنزل ضيقا ، لا ، ولن تفكر في قبر واسع بعد ذلك .
ستجد كل شيء جميلا ، جميلا ، وسيهوت ويتلاشى الفقر والجوع والضيق،
وسترى انها اصبحت غنية تعيش في بحبوحة واسعة لاحد لها اكبر من
المنزل الذي تقيم فيه بكثير .

حين دخل المنزل ، كان ابوه قد احضر الممرضة التي تقطن غير بعيد
عن المنزل لتعطي امه الابرة وكان كل شيء جاهزا في انتظار الدواء .
سارعت الممرضة الى ملء المحقنة بمحتوى الابرة ، والتفتت الى
امه بعد ان غرزت الابرة في جسمها الجاف واخرجتها برشاقة تدعو الى
الاعجاب فقالت لها الجملة التي اعتادت ان تكررهما لكل مريض :

– فيها العافية !

جورج سالم

حلب

صدر حديثا :

عينك قدرتي

قصص

بقلم غادة السمان

منشورات دار الاداب

الثلث ٣ ل.ل